

بلاد الشام

وأثرها في بلورة السمات الانسانية

للعلم والعمل في المغرب

عبد العزيز بن عبد الله

كان للشام دور كبير في تعريب المغرب الكبير منذ أوائل القرن الحادي عشر قبل الميلاد أي منذ أزيد من ثلاثة آلاف سنة حيث دخل الكنعانيون العرب الى القسم الشمالي الغربي من القارة الافريقية ، وأسوا عام ١١٠١ قبل الميلاد مدن : لبدّة Leptis Magna في ليبيا ، وعتيقة Utique في تونس ، وليكسوس في المغرب الأقصى . وعقبها عام ٨١٤ ق . م . تأسيس حاضرة قرطاج Carthage .

وقد فسح الوجود القرطجي (الكنعاني العربي) المجال بعد ذلك لانتشار اللغة البونية (Langue Punique) في أفاق شاسعة من الشمال الافريقي ضمن مصطلحية شاملة مع العامية الدارجة في المنطقة ، ويتجلى ذلك بصورة واضحة من الرخامة^(١) التي كشفها الدكتور البرازيلي السيد الأديزلونيتو وضمنها الجزء الأول من كتابه الانطروبولوجية ، وهي تحمل تاريخ ١٢٥ ق . م . (أي بعد أن استولى الرومان على قرطاج بنحو العشرين سنة) حيث توجد عشرات الألفاظ والتراكيب مفرغة في قالب عربي مع تحريف لا يخفى حتى على غير الاختصاصيين في فقه اللغة وعلم الاشتقاق .

(١) راجع مجلة « تقويم المنصور » للأستاذ توفيق المدني (عام ١٣٤٣ هـ) .

ففي الفقرة الأولى جملة حررت بالبونية هي : « هنا احنا بني كنعان فرم حقرة حمل » يمكن أن نقلبها الى عامية الشمال الافريقي وخاصة التونسية فنقول : « هنا احنا بني كنعان من فرانم حملنا الحقرة » ومعناها بالفصحى : « هنا نحن بني كنعان من فرانم تحملنا الاحتقار » ففي هذه الفقرة وحدها سبع كلمات لا يوجد فيها أي دخيل وانما هو انحراف بسيط عن الفصحى بسبب الاستعمال العامي المتداول ، على أن البونية قد بدأت تتسرب الى المغرب الأقصى مواكبة دخول القرطاجيين الرسمي نحو سنة ٤٨٠ ق . م . وأكد القديس أغسطين (St Augustus) أنها ظلت متغلغلة في أنحاء البادية المغربية الى نهاية عهد الوندال أي الى عهد الفتح الاسلامي ، في حين اندرست لغة الرومان باندراس معالم الحضارة اللاتينية التي تطورت في نطاق محدود لم يتجاوز مثلاً تمتد حدوده من طنجة الى ويلي الى شالة ، عاشت جاليتها الرومانية في قفص مقفل بعيدة عن المحيط البربري الذي كان يلفها ، وقد اعترف بهذه الظاهرة مؤرخون طالما دعوا الى « غريبة » البربر^(٢) ، ولكنهم دهشوا أمام هذا التجاوب العميق الذي مهد المفاوز والأوعار البربرية أمام الفتح الاسلامي بانتشار « لغة قريبة من العربية »^(٣) ، فكلمة قرطاج نفسها معناها قرية حداث أي القرية الحديثة ، صحفت إلى قرتاش بتعطيش الجيم كما نطق بها الرومان ، وكذلك حنبعل (Hannibal) أصله حني بعل أي نعمة الله ، وكان اسم أبيه هملكار (Hamilar) أي حامي القرية الذي حارب الرومان في صقلية .

(٢) مثل Gautier مؤلف « العصور الغامضة في تاريخ المغرب »

(٣) افريقيا الشمالية - كوتي (ص ١٤٨) .

ومنذ الفتح الاسلامي كان الخليفة الأموي في دمشق هو الذي حشد الجند بقيادة موسى بن نصير وخليفته طارق بن زياد لغزو الأندلس ، وقد عبر المضيق عام ٩٣ هـ / ٧١٢ م في جيش قوامه عشرة آلاف رجل ، معظمهم عرب فيهم القيسيون والينيون الذين نقلوا الى الاندلس منذ الفترة الاولى المجاذبات والنزاعات القبلية الشرقية .

وقد انضاف اليهم اثنا عشر الف جندي ، جاؤوا من الشام بأمر من الخليفة هشام بن عبد الملك بعد غزوة الأشراف (١٢٣ هـ / ٧٤٠ م) التي تزعمها خالد بن حميد الزناتي البربري ضد الجيوش العربية .

وقبل ذلك بربع قرن أوفد الخليفة الاموي عمر بن عبد العزيز الى افريقية والمغرب أساتذة وفقهاء من الشام لتلقين البرابرة لغة القرآن وتعاليم الاسلام .

ومنذ ذلك انطلقت الانتفاضة الأولى لتعريب المغرب في نطاق القرشية الاسلامية ، فقد تشكلت أول مملكة عربية بالمغرب بوحي من الخلافة الأموية بالشام عام ٩٢ هـ ، هي دولة بني صالح ، وصالح هذا هو صالح بن منصور الحميري الذي لم يكد يفتح تسمان حتى أقطعه إياها الوليد بن عبد الملك فأسس دولة عربية في المغرب سميت بعد ذلك بدولة بني صالح أو مملكة نكور ، وظلت هذه الدولة قائمة الاركان ثلاثة قرون ساهمت في نشر اللغة العربية لافي الريف (أي جبال شمال المغرب) وحده بل في باقي ربوع المغرب .

وظل طلبة الشمال في قلب غمارة بالريف يهاجرون منذ ذلك الى الشرق ، وخاصة الشام لتلقي العلم ليعودوا مشبعين بالروح العربية النابعة من أرض الله وليطلقوا تيمنا وحنينا أسماء عربية كالشام الصغير على منطقة قشتالة .

ولا شك أن أول نواة حضارية عربية تلقاها المغرب بعد الفتح الإسلامي قد جاءت عن طريق القيروان التي بدأت تنصهر فيها الحضارة الأموية بالشام بعد مرور ثلاثة أرباع قرن على الهجرة ، فأقيمت المساجد والدواوين والمسالح والدور الصناعية على غرار ما عرفتة دمشق آنذاك من روائع ، وإذا اعتبرنا الصلة الوثيقة بين القيروان والمغرب قبل أن تزدهر بالاندلس الحضارة الأموية في إطارها الجديد أمكننا القول بأن الشام كانت ينبوع المشترك للحضارتين مالم يث أن تعزز بمدد مباشر في عهد الأدارسة .

وهكذا يمكن القول بأن حضارة الشام اضطلعت بدور كبير في تعريب الفكر المغربي قبل ظهور الاسلام بسبعة عشر قرناً ضمن مثلث عروبي تمتد رؤوس أضلاعه في الخليج العربي شرقاً وفي المغرب الكبير غرباً لتلتقي برأس الضلع الأساسي في الشام .



ففي أواخر القرن الهجري الثاني (بين ١٧٢ و ١٧٧ هـ) تواردت على المولى ادريس الاول نحو خمسمائة فارس عربي تبلورت فيها فيفساء القبلية العربية بالشام ، فكان الوزير أزدياً ، والقاضي قيسياً ، والكتاب خزرجياً . وهنالك انبرى المد الشامي بطريق غير مباشر في المغرب حيث تركزت لأول مرة في تاريخ العدوتين مجموعات كبيرة تمثل مختلف طبقات المجتمع الأندلسي .

ويبلغ عدد الأسر الأندلسية التي هاجرت الى فاس عام ٢٠٢ هـ / ٨١٨ م بعد وقعة الربض أربعة آلاف حسب عبد الملك الوراق وثمانية آلاف (روض القرطاس ص ٢٥) ودوزي (تاريخ مسلمي

الاندلس ج ١ ص ٢٠١ / عام ١٩٣٢ م) أو ثمانمائة فقط (هنري طيراس - تاريخ المغرب ج ١ ص ١٨٨) ، وقد تحدث المقرئ في نفح الطيب (ج ١ ص ٢١٨) عن الوقعة التي أدت الى طرد الاندلسيين ، فذكر أن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل انهمك في لذاته ، فخلعه العلماء بقرطبة فأجلاهم عن الاندلس ولحقوا بفاس والاسكندرية ، ومن هذه الى جزيرة اقریطش حيث ظلوا مدة طويلة شوكة في حلق الاسطول البيزنطي ، معززة باسطولي مصر والشام .

فاذا حاولنا التنظير بين عناصر الحضارة الأموية من نشأتها في الشام الى امتدادها بالاندلس لاحظنا وحدة مقومات العمران والبناء والزخرفة والنقش والثقافة والاجتماع والتراتب الادارية والسياسية والقضائية في هياكلها ومصطلحاتها ، الا ان الاندلس لم تتصل بهذه المعطيات مجموعة قبل وصول عبد الرحمن الداخل عام ١٢٧ هـ حيث قضى خمس سنوات بالمغرب الشمالي ، ولم تكد الدولة الاموية الجديدة تستقر حتى وضع الأدارة فاس أسساً عمرانية كانت وفرة مياهها وبساتينها وفنادقها وقيسارياتها ومساجدها مظهراً خافتاً لعاصمة دمشق .

وقد كان لدخول أمير أموي شامي الى المغرب ضلع قوي في بلورة الوحدة الفكرية بين شقي العروبة . ذلك أن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام فرّ مع مولاة بدر الى مصر ثم القيروان لالتجاء الى قبيلة نفزة وأحواله في سبتة ، ثم انطلق بعد خمس سنوات نحو الاندلس حيث استغل الشقاق القائم على الطريقة الشرقية بين القيسية واليمية ، كما استغل الموالي الامويين الخمسة الذين كانوا يرابطون بين جند دمشق والبيرة وقنسرين وجيان بالاندلس .

وقد ظلت الأندلس تابعة معنوياً لدمشق ثم بغداد إلى عام

٣١٦ هـ / ٩٢٩ م حيث تلقب عبد الرحمن الثالث الأموي بأمرير المؤمنين بصفته خليفة^(٤) فكان ملكه بقرطبة امتداداً لملك الأمويين بدمشق ، وقد كان لهذه الظاهرة أثر رجعي حيث لاحظ المسعودي^(٥) عام ٣٢٧ هـ أن أمويي الأندلس كانوا يلقبون أنفسهم ببني الخلائف ، ولم يجرؤ المرابطون بعد ذلك على التسمي بأكثر من أمراء المسلمين ، وقد عرف البلاط الأموي في قرطبة لأول مرة في عهد عبد الرحمن الثالث أهة خاصة بمناسبة استقبال السفراء^(٦) فرشت الأرض خلالها بالحصر الأنيقة من باب قرطبة إلى مدينة الزهراء مسافة فرسخ (ثلاثة أميال) مع سياج من الجند على جانبي الطريق ، وكان الخليفة جالسا في آخر المطاف بين أفراد الشعب في ثياب خشنة وأمامه المصحف والسيف ، وهكذا انتقلت بعض هذه العادات التشريفية عن طريق الشام من البلاط الساساني إلى بلاط مراكش في عهد المرابطين والموحدين ، وتوافر الحشم والخدم في البلاط مع ظهور الصقالبة في مدينة الزهراء أواخر عهد الناصر حيث بلغ أفراد الحريم السلطاني ٣٧٥٠ ، تصل مع الاماء إلى ٦٣٠٠ امرأة .

أما الألقاب السلطانية فان عبد الرحمن الثالث هو الأموي الأول الذي تلقب بها بالاندلس فدعي الناصر لدين الله^(٧) ثم تلقب بعده الحكم الثاني بالمستنصر وهشام الثاني بالمؤيد .

(٤) الحلة السراء لابن الأبار ص ٣٣

(٥) مروج الذهب م ١ ص ٣٦٢ الطبعة الفرنسية باريس ١٨٦١

(٦) وصفها محيي الدين بن عربي في (محاضرة الأبرار ومسامرة الاخيار في الأدبيات

والنوادير والخبار) م ٢ ص ١٩٥ / طبعة القاهرة ١٣٠٥ هـ .

(٧) المغرب لابن عذاري ج ٢ ص ١٦٢ .

والدمشق : قصر بقرطبة (النسخ ج ١ ص ٢٢٤) فيه قال ابن
عمار :

كل قصر بعد الدمشق ينمُ فيه طاب الجنى وفاح المشمُ
وقد استبدل بعضهم البديع بالدمشق لمُدح قصر البديع بمراكش
(الأعلام للمراكشي (طبعة ١٩٧٤) ج ١ ص ٦٩) .

وقد أجاز الناصر بالاسبانية صدر بيت ارتجله شاعر هجاء من
بطانته^(٨) ولم يعرف هذا في المغرب إلا بالنسبة لعبد الملك المعتمد الذي
انتصر على البرتغاليين في معركة وادي المخازن .

وشملت التأثيرات الشامية شتى مجالات الحضارة والفكر فقد دخلت
في بناء جامع القرويين عام ٢٤٥ هـ عناصر من فنون دمشق ، وأضاف
الناصر الأموي عام ٣٤٥ هـ أي بعد مرور قرن كامل على بناء الجامع اثني
عشر بلاطا جديدا ، وحول المنارة إلى مكانها الحالي ، مغطيا بابها بصفائح
النحاس الأصفر مع قبة صغيرة محلاة بتفافيح مموهة بالذهب (زهرة الآس
ص ٣٧) ، وبذلك انبثقت النواة الأولى للفن الأندلسي المغربي البارز في
مسجد قرطبة الأموي ومدينتي الزهراء والزاهرة ، ولعل عهد الناصر
الأموي الذي ازدهرت فيه الفلاحة والصناعة والتجارة والفنون والعلوم^(٩)
بالأندلس كان عهد تحول وانقلاب في تاريخ الحضارة المغربية .

وقد ظل النظام الشامي نفسه أسيسة الدائريات العسكرية طوال
الحكم الأموي ، وظلت العناصر الجوهرية في الجيش متشخصة في الحاميات

(٨) ابن عذاري - البيان ج ٢ ص ٢٤٣ / ٣٧٦ / النسخ ج ٢ ص ٤١٧

(٩) ابن حوقل - طبعة دي خويه ج ٢ ص ٢٧ .

المنبتقة من دمشق (في البيرة) والأردن (في مالقة) وفلسطين (في شذونة) وحمص (في اشبيلية) وقنسرين (في جيان) .

وكان لملوك بني أمية الشاميين أهة خاصة يوم البروز، أي خروج الجيش للعرض أمام الخليفة في فحص السرادق حيث يصل في موكب فخم يمتد من قصره بقرطبة أو مدينة الزهراء لاستعراض الكتائب ، والاشراف شخصياً طوال أيام عديدة على أدق التنظيمات ، وفي يوم الجمعة التي تسبق انطلاق الحملة تقام حفلة عقد الألوية في جامع قرطبة وتسلم الرايات لقواد الكتائب لتعلق على الرماح وتعاد إلى مستودعها في الجامع بعد العودة المظفرة من الجهاد ، وهكذا ظل المغرب إلى عهد الحسن الأول في بداية القرن الهجري الماضي مجالاً لكثير من الظواهر الحضارية بعد ذبولها أو تقلصها في الشرق العربي .

فقد أقيمت الحصون والأبراج والمراصد والمباني العمرانية والمجمعات الاقتصادية ، ونظمت الخطط والحرف والمهن وشكلت بنيات الاستثمار الزراعي والصناعي على غرار نجد له إلى اليوم مجالي بارزة ، ربما امتاز بها المغرب في مسار التطور الحضاري العربي والاسلامي .
وكان للطابع الشامي ضلعه في بلورة هذه الصورة :
ففي الحقل العسكري بلغ أهل الشام أسمى مرتبة حيث انفردوا في العهد الأموي بالدور الطلائعي في الديوان :

فالرتبة أو المرصد : مراكز عسكرية تشرف على الممرات التي تؤدّي فيها رسوم الأبواب أي المكوس ، وتوجد بجانبها منازل ، أي فنادق شبيهة بمخانات المشرق وهي النزلة بالمغرب .

وأول برج بني بالأندلس في عهد الخليفة الحكم الثاني عام ٢٥٧ هـ (١٠)

(١٠) البيان لابن عذاري م ٢ ص ٢٥٧

هو حصن مازالت أنقاضه تشرف إلى اليوم على قرية Baños de la Encina شمالي إقليم جيان في الطريق التي تصل قرطبة بقطاع فحص البلوط (Castillo del Vacas) أي عقبة البقر .

وكانت القصبة تبنى بالاندلس على غرار الهندسة المغربية على شفا شاهق من الجهة الوعرة حتى يصعب تسلقها على المغيرين ، وكانت محاطة بسور من حجر أو نطاق أي عارضة من خشب (longrine) يمدق بحرم الحصن المشرف على الساحة التي تتفتح فيها الرض حيث تقطن الحامية مع عدد قليل من تجار المواد الضرورية .

وعرفت العدوتان المجانيق أو العرادات لاطلاق القذائف ، وكان النقبابون عبارة عن هيئة متخصصة في تقب الأسوار تحت اشراف عرفاء ، وكانوا يستعملون أيضاً الكبش في الحروب ، وقد احتفظت اللغة الاسبانية إلى اليوم بكلمات القصبة والدرب (أي ممر دورية الحراسة في القلعة) والسور والبرج البراني الخ .

وبلغت قطع الاسطول الأندلسي في عهد عبد الرحمن الناصر مائتين ، ومثلها في افريقية على رأسها قائد الأساطيل ، وكان على كل سفينة قائد يسهر على السلاح والمجاهدين ومعدات الحرب ، بينما يسير الرئيس دفة المركب إما بالشرع أو المجاذيف كما يشرف على عمليات الارساء في المرفأ ، وظلت المرية أعظم دار للصناعة بالاندلس منذ عهد الناصر ، وقد تعددت هذه الدور بنفس الاسم في حواضر مغربية وأخرى أندلسية كالجزيرة الخضراء وشلب ومالقة وطرطوشة .

وقد ظهرت في البلاط الأموي بالأندلس منذ القرن الرابع الهجري خطط تردد معظمها بنفس الاسم والاختصاص بالمغرب مثل أصحاب

المطبخ والمواريث والخيل والبرد (الرقاص) والصاغة والشرطة والصناعة والبيازرة مع مصطلحات أخرى كالطراز والخلع وخزانة السلاح والقهرمان وخاصة الخليفة والبيعة لولي العهد وباب السدة وأم الولد وحجاجة الولد والحرائر .

وظهرت في المغرب على نسق قرطبة الأموية خطط أخرى في المجتمع الأندلسي مثل الحاجب وقاضي الجماعة والمشاورة والعمال والوزراء ونواب الخليفة وكاتب الزمام وصاحب الرسائل وكاتب التنفيذ والتوقيعات (أي تنجيز التوقيعات) والأوقاف وبيت المال والصدقة والأعشار والخراجات والجوالي والجبايات والضمانات والرسوم على بيوع الأسواق والقطوع والمغارم والقبالات والمكس والمشرف والأمين النازلة (النزلة في المغرب) ودار السكة والمستخلص (المستفاد بالمغرب) وخاصيات بيت المال (خاصة بالسلطان) والضياع وغلاتها .

أما في خصوص المصالح القضائية ودوائر الشرطة فقد احتفظ المغرب بنفس الأسماء الأموية ابان المرابطين والموحدين والمرينيين واستمر ذلك إلى اليوم :

من ذلك قاضي الجماعة وقاضي الجند وصاحب السوق (وهو قاض) وقاضي القضاة وفقهاء الشورى (أو أصحاب الرأي) والمسدد (قاضي السداد وهو حديث بالمغرب) وحاجب الصلاة وقاضي العسكر ، وللقاضي نفس الاختصاصات حول الوصايا والأحباس والطلاق والتحجير والخصام والمواريث والوكالات وتوقيع الشهادات والوثائق والعدول وديوان العدول (أي سجلهم) ومقصورة القاضي (تكون بأحد الجوامع وخاصة الجامع الكبير في الحواضر الكبرى) .

ومن الخطط المنقولة إلى المغرب عبر العصور خطط أبي المواريث

وصاحب العرض (المكلف بالجيش) وصاحب الشرطة وصاحب المدينة أو متقلد المدينة وخليفته (الحاكم في تونس ، القائد في المغرب أو الباشا في عهد السعديين اقتباساً من الأتراك) والمحتسب (شبه صاحب السوق) وصاحب الرد أو المظالم^(١١) (صاحب الشكايات بالمغرب) وقد تقلد أواخر العهد العلوي منصب وزارة الشكايات .

وقد كان للزهراء والزاهرة في عهد عبد الرحمن الرابع المستنصر بالله (٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م) حسب ابن حيان^(١٢) مكلفون بخدمة المدينتين ، وآخرون للتعقب والمحاسبة والإشراف على الحشم ومواريث الخاصة والمباني وخزانة القبض والنفقة وخزانة الطب والحكمة والانزال والنزائل^(١٣) وقد عرف المغرب والأندلس نفس الحرف حيث اتحدت أسماؤها مثل : العجان والرفاد (الذي يدخل الخبز في الفرن ، أو يحمله إلى المنازل كما في المغرب) والخباز والجزار والشواء والقلاء والسفاج والقطان والقصار والطرار والحشّاء (لتحشية المضارب) والقلّاس (صانع القلنسوات) والصباغ والقراق (الاسكافي) والخياط والرفاء والصيدلاني والعطار والصياغ (بائع الجواهر) والرقاق (بائع الرق) والكفّاد (بائع الورق) والحلفاوي (بائع أو صانع نسج الحلفاء) والوزان والصيرفي والبناء والفخار والزجاج والصفار والحداد والنجار والدلال .

وبرزت نفس السمات في هندسة وبناء الفنادق^(١٤) ، والبازارات

(١١) كان صاحب الرد بالاندلس يختص أحياناً في الشرعيات ، وصاحب المظالم في

المدن

(١٢) البيان م ٣ ص ١٢٥

(١٣) هذه الخطط والتراتب كلها بارزة في الحضارة المغربية ، راجع كتابنا (الامارة

والأمراء بالمغرب) (مخطوط) .

(١٤) الفندق : عبارة عن الخان يستقبل المسافرين والتجار الاجانب .

والقيساريات . وقد ذكر ليفي بروفنسال أن الاندلسيين نقلوا معهم إلى المغرب فن البستنة وتجربتهم في الحياة الحضرية التقليدية^(١٥) .
وتقل المقرئ عن ابن غالب (النسخ ج ٢ ص ٧٦٤) أن أهل الأندلس تفرقوا في المغرب الأقصى مع إفريقية فمال أهل البادية إلى ما اعتادوه ، فاستنبطوا المياه وغرسوا الأشجار وأحدثوا الأرحى الطاحنة بالماء وعلموا بالماء وعلموا أهل البادية أشياء جديدة .
ومعلوم أن الاندلسيين قد أثروا من ناحية أخرى في اخوانهم المغاربة حيث كانوا يحتكرون ببلادهم (حسب سرفانطيس مؤلف دون كيشوط) تجارة الأغذية ، ويضعون يدهم على المحاصيل عند نضجها ، وهم لا يشترون العقارات حفاظاً على حرية رواج أموالهم .

ولم يكن الشاميون العسكريون مستأنسين بالحياة الفلاحية ، لذلك نزحوا عن البادية واستوطنوا المدن والحواضر ، في حين أن الجاليات البربرية تجمعت خارج السهول وحواضر الأندلس الكبرى^(١٦) ولذلك كانت اللغة العربية سائدة بفضل التأثير الشامي في السهول خاصة بالنسبة للأسماء الجغرافية ، ويلاحظ ذلك شرقي الأندلس في إقليم levante حيث لم يسبق للبربر أن استوطنوا قبل الموحدون في القرن السادس الهجري ، ومن جملة هذه الأسماء العربية بنو حيون في بلنسية وبنو قاسم وبنو غانم قرب شاطبة .

وكانت طواحين الهواء أو الماء موفورة على ضفاف الوادي الكبير بين

(١٥) (فاس قبل الحماية) - ص ٤٧ بقلم لوطورنو le Tourneau الذي لاحظ

(ص ٢٠٥) أن العرب نقلوا إلى فاس مظاهر نبلهم ، بينما نقل الأندلسيون رقتهم .

(١٦) راجع الاصطخري المتوفى عام ٢٢٥ هـ في كتابه (مسالك الممالك) م ١ ص ٤٤

وهؤلاء البرابرة من نفزة ومكناسة وهوارة ومديونة .

قرطبة واشبيلية ، ومثلها بالمغرب عدا نوع انفردت به الاندلس وهو الطواحين المحمولة على الاطواف تنقل حسب مجرى المياه في اقليم مرسية .
وقد عرفت العدوتان نظام الساقية الذي تشرف عليه محكمة المياه بحيث يجري توزيعها تحت المراقبة المباشرة لوكالة المياه^(١٧) .

ولم يكن مستغل الارض يمنح لمالكها أكثر من أربعة أخماس المحصول ، لذلك سمي في المغرب بالخمّاس مع أسماء أخرى أندلسية مثل العامر والشريك والمناصف ، الا أن نوع الزراعة التي تواكبت فيها التجهيزات والعمادات هو زراعة الزيتون في منطقة واسعة جنوباً وشمالاً سماها الإدريسي باقليم الزيتون ، استعملت في العدوتين مصطلحاتها الموحدة التي اقتبست منها الاسبانية كلمات الزيتون والزيت والزبوج (الزيتون البري أو الوحشي) (acelrucke) .

وقد عنيّت العدوتان بزراعة الارز وقصب السكر مع اقامة نفس الاجهزة للري تحمل أسماء واحدة حتى في الاسبانية مثل البركة (الحوض) والسد والجب (الصهريج) والناعورة والسانية والقادوس (القناة) والطنور (أنبوب العين أو السبيل) والقبة (مجمع أنابيب السقي) (راجع : Ganz alez Palencia Eelislam Yoccidente P . 27) .

وقد تزوجت زراعة قصب السكر في البلدين مع أشجار الموز بجنوب المغرب وأسفل الوادي الكبير بالاندلس (اشبيلية ومالقة والمرية) كما توافرت في نفس المناطق زراعة الزعفران والقطن والكتان وشجر التوت لتغذية دود القز حيث اختصت بالاندلس ثلاثة آلاف قرية

(١٧) ابن عذاري - البيان م ٣ ص ١٥٨ تقلا عن الذخيرة لابن بام .

بصناعة الحرير وصل تأثيرها الى ناحية فازاز بالأطلس .

وقد حفلت الرياض في العدوتين بأزهار - ظلت موضوع قصائد (النوريات) - منذ القرن الرابع الهجري ، وتوازت فيها الأسماء بين العربية والاسبانية مثل الحبق والسوسن (السوسان) والخزامى والياسمين والخيري (المثنور) والرتم (retama) والدفلى (الحبن) والريحان والزهر (زهر البرتغال) .

ونظام المهرجان الفارسي الذي يرمز الى الاعتدال الخريفي قد عرف في كل من الأندلس والمغرب باسم العنصرة التي تقع يوم ٢٤ يونية (حزيران) من كل سنة ، هذا بينما انفردت الاندلس بالاحتفاء بعيد النيروز لدى اعتدال الربيع وهي تتسم بطابع فلاحى صرف .

أما الحسبة فنظامها واحد في شقي البحر المتوسط : المغرب والأندلس ، ومساردُ مصنفات الحسبة عبارة عن مدونة اقتصادية واجتماعية تغطي جانباً كبيراً من مجالات اختصاص المؤسسات الاقتصادية المعاصرة .

فقد توأمت منذ العهد الموحدى بين العدوتين صناعة الورق في شاطبة وسبتة وفاس حيث تجمعت في مصانع الورق في العاصمة الادريسية وحدها في القرن السابع الهجري اربعائة رحى .

وكانت العدوتان تهتمان بالاحصاءات العمرانية والتجارية : أحصى ابن أبي عامر في قرطبة وأرباضها ٢١٣٠٧٧ داراً شعبية و ٦٠٣٠٠ دار رجال المخزن أو البلاط و ٨٠٤٥٥ دكاناً دون المصارى (العليات) والحمامات والحانات ، كما أحصى الناصر والمنصور الموحيديان في فاس اثني عشر معملاً لتذويب الحديد والنحاس ، وأحد عشر مصنعاً للزجاج

بالإضافة الى ٣٠٩٤ دار للنسيج و ٤٧ مصنعا للصابون و ٨٦ مدبغة و ١١٦ مصبغة و ١١٧٠ مخبزة و ١٨٠ معملاً للخزف و ١٢ مصنعا للحدائد والنحاسيات و ١٣٥ فرنأ للجير الخ^(١٨) .

وهذه الفسيفساء من المجالي الحضارية المتواكبة قد ازدادت رونقاً وجاذبية في أصلتها العربية بفضل تنوع الناذج واختلاف بعضها في الجهات المختلفة في العدوتين ، فقد استعمل الأندلسيون مثلاً في المناطق الحضرية والسهلية القلنسة العربية في حين غلبت العمارة البربرية في الجبال^(١٩) .

كما كانت المباراة الشعرية تنظم بأسواق فاس آخر أيام المرينيين حسبما شهد بذلك رحالة أجنبي زار المغرب في ذلك العهد ، وكان هذا النوع من المباراة شيئاً مألوفاً معتاداً في الاندلس ، وقد أشرنا في كتابنا (موسوعة الأعلام الحضارية والبشرية في المغرب الاقصى) الى العديد من كتب الادب والعلوم الاسلامية الأصيلة التي دخلت من المشرق الى المغرب عن طريق الأندلس .

فقد اصطبغت معظم كبريات المدن المغربية بالميسم الشرقي حتى شبه المؤرخون فاساً بدمشق ، والرباط بالاسكندرية ، ومراكش ببغداد ، ومدينة حمص أحد أرباض فاس الجديدة هي عبارة عن قصبة أسست للرملة الغز الواردين من مدينة حمص الشهيرة في بلاد الشام .

وظل التبادل المباشر بين الشام والمغرب موصولاً من القرن الهجري

(١٨) روض القرطاس ص ٨١

(١٩) نفع الطيب ج ١ ص ١٣٧ نقلاً عن ابن سعيد المغربي .

الأول الى القرن الحادي عشر الهجري . ففي الوقت الذي كان الأسطول المرابطي في القرن الخامس الهجري يخر عباب مياه الشام دفاعاً عن حوزة فلسطين (كما يؤكد ذلك الفونس السابع ملك قشتالة) كانت مئات الأسر المغربية قد انتقلت الى جوار بيت المقدس لمقاومة الصليبية ، معززةً بوقف أبي مدين الغوث ، وقد تزايدت هذه الأعداد عبر العصور الى أن وصلت هذا القرن الى خمسة آلاف عائلة هاجرت الى الشام أرض الله وبيت المقدس .

ولما توحدت مصر والشام والقدس تحت راية الأيوبيين عام ٥٨٣ هـ انقض عليها الصليبيون من كل جهة ، وتتابعت أساطيلهم لاعتراض الاسطول الأيوبي الرابض بالاسكندرية ، واستصرخ صلاح الدين المنصور الموحي طالباً اعانته بالاسطول المغربي الذي كان آنذاك أول اسطول في البحر المتوسط ، بمنازلة عكا وصور وطرابلس ودمشق وأوفد الى مراكش أبا الحارث عبد الرحمن بن منقذ الشامي فأمدّه السلطان حسب رواية مرجوحة بمائة وثمانين قطعة من الاسطول المغربي .

وكان ليوسف بن عبد المؤمن ولوع بجمع الكتب فأسس مكتبة^(٢٠) صاهت مكتبة الخليفة الأموي الحكم الثاني التي احتوت على ستمائة الف مجلد ، وقد لاحظ المؤرخ جيبون ان الافرنج نهبوا مكتبة طرابلس الشام اثناء الحروب الصليبية وكان فيها ثلاثة ملايين مجلد .

وقد تواردت على المغرب في مختلف العصور أفواج من علماء الشام مثل محمد بن عبد الوهاب الدمشقي الحنبلي تلميذ ابن الجوزي المتوفى عام ٦٥٧ هـ^(٢١) ، ومحمد بن عامر الحمصي الذي تنقل بين حلب والشام وفاس

(٢٠) المعجب للمراكشي ص ١٤٥ ، حضارة العرب لغوستاف لوبون ص ٤٦٨

(٢١) الاعلام لعباس بن ابراهيم المراكشي ج ٣ ص ١٤٨

حيث توفي عام ٥٧٠ هـ^(٣٣) وأحمد الحلبي الذي استوطن فاساً وهو صاحب « الدر النفيس في مناقب الامام إدريس بن ادريس » .

كما هاجر الى الشام فلول من علماء المغرب أمثال ابن رشيد الذي أخذ بدمشق عن الحراني وابن عساكر (توفي بفاس عام ٧٢١ هـ) ومحمد بن قاسم التيمي القاسي (المتوفى عام ٦٠٤ هـ) وجمال الدين محمد بن أبي بكر البغدادي أصله من القصر الكبير بالمغرب (توفي عام ٦٦٣ هـ) ومحمد بن المنذر المراكشي نزير حلب (ت ٦٢٨ هـ) ومحمد بن الخضر السبتي الذي تعلم على ابن الصلاح بدمشق عام ٦٣٤ هـ^(٣٤) وعلي بن ميمون الحسيني القاسي والذي توفي بالشام^(٣٥) وعلي الحرالي الذي ولد بمراكش وتوفي بالشام عام ٦٣٧ هـ ومحمد بن علي المراكشي السلوي الذي درس بحجة ودمشق وتوفي بمراكش عام ٦٧١ هـ^(٣٥) وتاج الدين محمد بن ابراهيم المراكشي الذي ولي تدريس السرورية بدمشق (ت ٧٥٢ هـ) وسالم بن ابراهيم الصنهاجي الدمشقي شيخ المدرسة الشراييشية المولود (عام ٧٧٧ هـ) ، وقاضي القضاة شهاب الدين أحمد بن المريني وشمس الدين السلاوي دفين الصالحية^(٣٦) واحمد بن محمد بن أحمد بن عمر بن رضوان الدمشقي وقيل .. بن أحمد بن محمد بن عمر السلاوي الذي توفي بدمشق عام (٨١٣ هـ / ١٤١٠ م) وهو آخر من بقي من طلبة الشافعية وابراهيم بن محمد بن علي التادلي برهان الدين الدمشقي المتوفى عام

(٢٢) سلوة الأنفاس ج ٢ ص ٢٦٧

(٢٣) درة الحجال ص ٢٨٢

(٢٤) دوحة الناشر لابن عسكر ص ٢٥ / نيل الابتهاج للسوداني ص ١٨٧

(٢٥) الاعلام لعباس المراكشي ج ٢ ص ٢٤٨

(٢٦) الدارس في تاريخ المدارس لعبد القادر النعمي ج ١ ص ٢٣ و ١٠٩ .

(٨٠٣ هـ / ١٤٥١ م) قاضي المالكية بدمشق وقاضي حلب أصله من تادلة المغرب (شذرات الذهب ج ٧ ص ٢٢) .

وقد اتحفنا أحمد بن محمد بكتاب قيم هو (عرف النشق في أخبار دمشق) .

وقد ذكر ابن جبير في رحلته لدى زيارته عام ٥٨١ هـ لدمشق (نشرة حسين نصار القاهرة ١٩٥٥) حبّ أهل دمشق للمغاربة فكانت للطلبة زاوية في الجامع الأموي يتعلمون فيها وتجري عليهم الاموال (ص ٢٧٤) وانه شاهد رجلا من بقية المرابطين أميناً للربوة وهي ضاحية جميلة من ضواحي دمشق له مكانة عند السلطان يُؤوي أهل المغرب ويسبب لهم وجوه المعاش (ص ٢٦٦) وأحسن الدماشقة الظن بالمغاربة « لأنهم قد علا لهم بهذا البلد صيت في الأمانة وطار لهم فيها ذكر » (ص ٢٦٧) ، وذكر أن نور الدين عين للمغاربة الغرباء زاوية المالكية بالجامع ووقف عليها أوقافاً ، وكان هذا الوقف يغل في العام ٥٠٠ دينار (ص ٢٧٤) ويلح ابن جبير في هذا الاكرام الذي هو ضد ما اعتدنا في المغرب (٢٧٥) وكان المشاركة ينسبون المغاربة للبخل والحق ، حتى إن الذهبيّ عندما ترجم لابن مالك النحوي قال فيه : « خالف المغاربة في حسن الخلق والسخاء والمذهب » (شذرات الذهب ج ٥ ص ٢٣٩) وكان ابن مالك شافعيّاً ، وذكر عنهم ابن سعيد : وهم أهل احتياط وتدبير في المعاش وحفظ لما في أيديهم خوف ذل السؤال فلذلك قد ينسبون للبخل (المقري ج ١ ص ٢٠٨) .

ووصف ابن بطوطة حب الدماشقة للمغاربة فقال : وأهل دمشق يحسنون الظن بالمغاربة ويطمئنون اليهم بالأموال والاهلين والاولاد .. وكل من انقطع بجهة من جهات دمشق لا بد ان يأتي له وجه من المعاش

من امامة مسجد أو قراءة بمدرسة أو ملازمة مسجد يجيء إليه فيه رزقه أو خدمة مشهد من المشاهد المباركة أو يكون كجملة الصوفية أو حراسة بستان أو امانة طاحون أو كفالة صبيان يغدو معهم الى التعليم ويروح ، ومن اراد طلب العلم أو التفرغ للعبادة وجد الاعانة التامة على ذلك .. (الرحلة ص ٦٣) .

وقد كتب ابن بطوطة في القرن الثامن الهجري وصفاً مقتضباً لما شاهده في دمشق حيث توافرت الملاجئ والهيئات الخيرية ، فكانت هنالك أوقاف لتجهيز الفتيات المعوزات الى أزواجهن ، وأخرى لفكاك الأسرى واسعاف أبناء السبيل واوقاف لرصف الطرق لأن أزقة دمشق كان لكل منها آنذاك رصيفان في جانبيها يمر عليها الراجلون ويمر الركبان بين ذلك وكان بدمشق أيضاً وقف الأواني المنكسرة ، وقد عرف المغرب كل تلك الأنواع من الأوقاف بالاضافة الى وقف آخر خاص باطعام الطيور .

كما أشار ابن بطوطة الى نماذج من الصناعات الرقيقة في بعلبك كالملاعق والصحاف التي يتداخل بعضها في جوف بعض في عشاريات تغشى في خروز من جلد وقاية لها .

ذكر المحبي في خلاصة الاثر ج ١ ص ٣٠٢ (طبعة مصر ١٢٨٤ هـ) في ترجمة المقري الذي زار دمشق عام ١٠٣٧ وأملى صحيح البخاري بجامعة الاموي تحت قبة النسر بعد الصبح قال : « ولم يتفق لغيره من العلماء الواردين على دمشق ما اتفق له من الحظوة واقبال الناس » .

ولعل ما لاحظته المقري وقبله ابن خلدون من فروق بين المشرق والمغرب في الاتجاهات الفكرية والمناهج العقلية قد ظل على ما كان

عليه ، اذ بينما كان الشرق مطبوعاً بالعمق في ملكة العلوم النظرية طفق المغرب يوغل في البحث اللفظي مع تحقيق مناط ما احتوت عليه بواطن الابواب وتصحيح الروايات وبيان وجوه الاحتمالات ، والتنبيه على ما في الكلام من اضطراب الجواب واختلاف المقالات مع ما انضاف الى ذلك من تتبع الآثار ، وبينما غلب على تأليف المشاركة الايجاز (عدا البعض كالغزالي والفخر الرازي) مع انحصار في الموضوع سواء في التصنيف أم في التدريس اذا بالمغاربة من القيروان الى القرويين يوغلون في الاستطراد ، الا أن الامر لم يبلغ الحد الذي زعمه ابن خلدون في المائة الثامنة من انقطاع ملكة التعليم على طريق النظر اذ أن ذلك يناقض ما ذكره علي بن ميمون الحسني الذي عاش فترة طويلة في دمشق حيث قال في خصوص فاس : ما رأيت مثلها ومثل علمائها في حفظ ظاهر الشرع العزيز بالقول والفعل وغزارة الحفظ لنصوص إمامهم مالك وحفظ سائر العلوم الظاهرة من الفقه والحديث والتفسير ، وحفظ نصوص كل علم مثل النحو والفرائض والحساب ... والمنطق والطب وسائر العلوم العقلية ... ما رأيت مثل علمائها في سائر مدن المغرب .. ولا إقليم الشام^(٢٧) .

ومهما يكن فان احتكاك الشاميين والمغاربة طوال أزيد من ثمان مائة سنة ، بالاضافة الى التبادل الحضاري القديم جعل لهجتي الشام والمغرب من أفصح اللهجات العربية وقد تحدث الاستاذ كرد علي عن (عجائب اللهجات)^(٢٨) فقال : لعل الدخيل كان نادراً في أرض الاندلس

(٢٧) سلوة الانفاس ج ١ ص ٧٤ .

(٢٨) مجلة مجمع اللغة العربية ج ٧ ص ١٢٨ عام ١٩٥٣

لان الامويين توخوا الوحدة في كل شيء الى أن قال : وكانت اللهجة الاندلسية من أجمل اللهجات نقلها أهلها بعد الجلاء الى البلاد التي نزلوها : مراكش والجزائر وتونس ومصر والشام ولعلها كانت لقرها من الفصحى أشبه بلهجات اليمن والحجاز ، والاندلس استعملت ألفاظاً فصيحة ما استعملها العراق ومصر والشام وقد لاحظ (لوى برونو) Brunot في تحليله لكتاب حول اللهجة العامية في طرابلس الشام^(٢٩) ان اللهجة الطرابلسية الشامية أقرب الى الفصحى من المغربية لانها تترك باب القياس مفتوحاً على مصراعيه ولها نزوع الى التسهيل والتبسيط وحذف ما ليس له فائدة محققة في التعبير عن الفكر والعاطفة وهي نظرية لها ما يؤيدها وان كان في العامية المغربية - كما ابرزنا ذلك في كتابنا نحو تفصيح العامية^(٣٠) - ما يشهد لهذه أيضاً بهذه الاصاله وقد استعرضنا في بحث بعنوان مظاهر الوحدة والاختلاف في عاميتي المغرب والشام^(٣١) مثل سقوط الهمزة في الافعال (ضرب) بدل (اضرب) ورأس (بدل رأس) ووضو بدل (وضوء) واطافة ياء في مثل دواة (دوايا) واسقاط تاء التأنيث (مكتبه بدل مكتبة) وقلب الواو المتطرفة الى ضمة بعد حرف ساكن (دلو) وتحويل الواو الساكنة بعد فتحة إلى حرف مثل توفيق (بضم التاء) بدل توفيق وكذلك قلب الياء المتطرفة في اللفظ الى كسرة بعد حرف ساكن مثل مشى تلفظ مش مع تسكين الحرف الاول أضف الى ذلك عملية قلب الحركات أو الغائها الخ .

وقد انتقلت الى المغرب من الشام مصطلحات رومية قليلة كالبلستان

(٢٩) صدر بباريس عام ١٩٥٤

(٣٠) طبعة مكتب تنسيق التعريب - مطبعة فضالة - المحمدية عام ١٩٧٢ .

والقسطاس والبطاقة والاسطربلاب والقنطار والقرمود والترياق والقنطرة والقيطون^(٣٠) .

وختاماً كان لمهاجري الشام والأندلس والمغرب الى أمريكا الجنوبية أثر مشترك يتجلى في الشبه الوثيق بين الطرفين في ميدان الهندسة المعمارية ووحدة أساليب البناء في الكنائس والاديرة والمنازل والحمامات ، بالاضافة الى تأثر المصطلح اللغوي الامريكي بالمفردات العربية خاصة في المياه والسقي والري وأسماء الازهار والنباتات العطرية بل وحتى مودة النساء في الحلبي والمصوغات .

وهكذا يتجلى من هذه العجالة تواكب الحضارتين الشامية والمغربية منذ آلاف السنين ، حيث تطعمت عبر العصور بسمت جديدة بلورت وحدتها .